غرفة الطابق العلوي

قصة قصيرة

أحمد فؤاد

عالم مواز

عالم مواز
منصة ثقافية لإثراء المحتوى العربي
www.3alammowazy.com

.....

إهداء

إلى شادي... آمل ألا أكون قد أزعجتك!

.....

غرفة الطابق العلوي

- هل تذكر ما حدث ليلة أمس؟

حاول الطبيب النفسي أن يكون لطيفًا قدر المُستطاع وهو يلقي سؤاله على الطفل الذي يجلس أمامه. لم يكن في حالة ذهنية جيدة تسمح له بالقيام بهذا التحقيق، كان على مشارف إنهاء عمله في نوبة الليل مُمنّيًا النفس بنوم عميق كمكافأة عن يوم عمل مرهق. لكن حظه العاثر جعل مديره يختاره للقيام بهذا التحقيق بناء على طلب عاجل من إدارة المباحث الجنائية. طُلِب منه الذهاب إلى مكان التحقيق مباشرة في أحد المناطق السكنية الهادئة المتاخمة للمدينة.

أخبروه بأنهم تلقوا بلاغًا في منتصف الليل من حارس أحد الفيلات الموجودة على مشارف المدينة؛ يفيد بسماع صوت طلق ناري داخل الفيلا. والذي فضّل أن يتنظر الشرطة بدلًا من أن يعرف بنفسه ما حدث بالداخل. بعد اقتحام الشرطة للفيلا؛ اكتشفوا الحادث، كما وجدوا طفلًا صغيرًا يجلس في غرفته بالطابق العلوي تبدو عليه ملامح الصدمة. قرر الضابط المسؤول أن يستعين بطبيب نفسي مختص لاستخلاص معلومات منه بعد رفضه التحدث مع أي شخص.

في البداية تأفّف كعادته كلما استلم مهمة عمل جديدة، لكن بعد وصوله إلى مكان الحادث وبعد إطلاعه على التحقيقات، دوّن في دفتره الصغير مُلخّصًا لها في شكل نقاط، وأضاف ملاحظاته الشخصية عليها. هدأ سخطه بعد ترتيب أفكاره وقدّر أن المهمة لن تستغرق أكثر من ساعة على أقصى تقدير. سخر في نفسه من أولئك الضبّاط الذين يتباهون بقدرتهم على انتزاع الاعترافات من أعتى المُجرمين، لكنهم يقفون عاجزون أمام الأطفال. خمّن أن ذلك يعود لمشكلة لديهم في إدراك معنى البراءة.

افترض المُحقق تشخيصًا لحالة الطفل، لكن حسب الإجراءات كان سيظل ذلك التشخيص مجرد احتمال يلزمه تأكيد الطبيب النفسي. مطّ شفتيه وهو يتأمّل التشخيص المكتوب في دفتره.

اضطراب ما بعد الصدمة - PTSD

ارتسمت على وجهه ابتسامة استخفاف، وهو يشطب بالقلم على التشخيص. إن أصغر طبيب نفسي يعرف أن اضطراب ما بعد الصدمة لا يحدث مباشرة بمجرد التعرض لحادث أليم، وإنما بعد بضعة أسابيع كحد أدنى. لم يفهم لماذا يصعب على البعض أن يعترف بجهله في أمر من الأمور خاصة إن كانت ليست من اختصاصه. كتب بخط رديء ASD، كان يتوقع أن يكون التشخيص الصحيح هو اضطراب ضغط نفسي حاد نتيجة للتعرض لصدمة عنيفة. قدّر أن مهمته لن تستغرق وقتًا طويلًا سيقابل الطفل وغالبًا لن يتحدث ومن ثم يصدر تشخيصًا قبل أن يذهب إلى بيته كي ينام كما لم ينم من قبل. رغم ارتياحه لسلاسة مهمته، إلا أنه شعر بإهانة ضمنية لكبريائه الوظيفي، فمهمة بهذه السهولة يستطيع أن يقوم بها أي طبيب لديهم في القسم. لكنه يعرف من خبرته حُب الشرطة لتضخيم الأمور، لهذا أخبروه بأن القضية غامضة دون أي سبب مفهوم. ولطالما عزى ارتيابهم الدائم إلى اعتيادهم على الإثارة البالغة في حياتهم البوليسية، والتي تجعلهم غير قانعين بأي تفسير بسيط لأي قضية يُكلَّفون بحلها.

نظر إلى الطفل البالغ من العمر 7 سنوات كما عرف من الأوراق، تأمّل ملامحه الجامدة ووجهه الشاحب وعيناه الرماديتان وشعره الأسود الناعم، ويداه النحيلتان التي يضعها على ركبتيه. بدا قاتمًا في كنزته الكحلية وبنطاله الأسود، مما زرع في الطبيب رغبة صادقة في مساعدته.

أعاد سؤاله برفق: "شادي... هل تذكر ما حدث ليلة أمس؟"

لم تصدر منه أي إجابة وبدا وكأنه لم ينتبه إلى وجوده. راقب نظراته التي تُحدّق في الفراغ بشكل ثابت بينما راح هو يكتب في دفتره

- صدمة أوليّة – مرحلة كمون.

أخذ نفسًا عميقًا في محاولة للسيطرة على الصراع الدائر داخله، كان واجبه كطبيب أن يعالج الطفل ولا يسمح أبدًا بإجراء أي تحقيق معه في الوقت الحالي، لكن اهتمام المباحث الجنائية الشديد بهذه القضية، دفعهم لاتخاذ قرار بأن تكون الأولوية لسرعة حلّ القضية واستخلاص أي معلومة من الشاهد الوحيد... شادي. لهذا فقد كان أقصى ما حصل عليه هو السماح له بإجراء التحقيق مع الطفل في غرفة نوم الطفل التي وجدوه بها.

لم تكن المرة الأولى التي يُشارك فيها في مثل هذه القضايا ذات الاختيارات الشائكة، لكنه بمرور الأيام والتجارب تكوّنت قناعة داخله أن هناك اتفاق ضمني في المجتمع بأن حقوق الفرد هي قُربان لابد من التضحية به من أجل الصالح العام!

سرّه أن تكون الغرفة أنيقة نظيفة مُرتّبة، تبدو وكأنها قد رُتّبت للتو. ولولا أن الغرفة كانت غير مُتربة لظن أن لا أحد قد دخلها منذ زمن.

لوّح بكفّه أمام عينيّ الطفل مُحاولًا الابتسام:

- شادي... هل تسمعني؟

لم يلاحظ أي رد فعل... شَكّ أن يكون الطفل غارقًا في إحدى حالات الهذيان المؤقت بسبب الحادث المروع الذي تعرّض له، وأنه يعيد الآن في خياله الأحداث التي قد مر بها. إلا أنه تساءل لماذا لا يرى على محياه أي علامات للخوف. تصفّح دفتره بشكل سريع للتأكدّ، لكنه لم يجد ما يفيد ظهور أي نوبات هلع منذ أن وجدوه!

خمّن أن شادي لابد في حالة من عدم التصديق، أو ما يُسمى محاولة دفاع من الأنا الداخلية لمواجهة الصدمة العنيفة، وأدرك أن عليه أن يبدأ في إظهار التعاطف مع الطفل لحثّه على التعبير عن شعوره والتنفيس عنه كمحاولة أولية للسيطرة على الصدمة النفسية التي يمر بها.

قال بصوت متعاطف:

- شادي... لابد أنك تعاني مما قد رأيته ليلة أمس، أعرف أنك تحتاج إلى الراحة، لكن...

صمت للحظة ثم أكمل وهو يمد يده كي يضعها على كفّ الطفل الشاحب كوسيلة لبث الأمان فيه:

- لكننا نحاول أن نعرف من فعل ذلك للإمساك به ومعاقبـــ.....

تحركت عينا الطفل فجأة لتنظر في ثبات إلى الطبيب، أحس بقشعريرة تجتاحه بعنف، توقفت يده قبل أن تلمس كف الطفل، لم يستطع الهرب من نظراته الثابتة التي اخترقه وسمّرته في مكانه. لم تكن نظرات غضب أو كراهية، بل كانت باردة كالثلج حتى أنه أحس بروحه تتجمّد وبأنه غير قادر على الحركة أو الكلام.

وبّخ نفسه على رد فعله، خاصة وأن الطفل ظل ثابتًا بلا أي حركة، فعزى اضطرابه إلى توتّره وقلّة نومه. ابتلع ريقه وقال بصوت فشل أن يجعله هادئًا:

- لا تخف... أنا هنا لأساعدك.

ظلت نظرات شادي الثابتة تحاصره من كل جانب كنسيج عنكبوت ضخم، حاول يائسًا الهروب منها دون جدوى. زاد ذلك من توتّره، أطلق سبّة في سرّه، وتظاهر بالاطلاع على دفتره، ثم تماسك قائلًا:

- هل من الممكن أن تحكي لي ماذا رأيت؟

ردّ شادي بصوت بارد دون أن يبعد نظراته عنه:

- هل تريد أن تعرف حقًا؟

باغتته رجفة خاطفة، وفكّر سريعًا عن سببها داخله، هل كانت بسبب صوت الطفل المحايد! صحيح أنها جملة مكونة من خمس كلمات فقط، لكنها لم تكن تحمل أي مشاعر معها. كان يوقن من خلال خبرته الطويلة أن أي انسان لابد أن تحمل نبرته إحساسًا ما، ولو بشكل واهن حتى ولو تصنّع البرود. لم ينجح أي شخص -مهما بلغت براعته في الادعاء- في أن يجعل صوته خالٍ بشكل كامل من المشاعر سواء كانت صادقة أو مفتعلة؛ كان يتسّرب من أعماقهم هسيسًا يُغلّف كلماتهم، هسيس غير مسموع إلا لأذن مُدّربة لالتقاطه. كان حتمًا سيتخلل الكلمات شعورًا ما؛ خوف – تحدّي – قلق – سخرية – حذر – كذب – ريبة- استرحام – وجع. حتى في حالات الصدمات النفسية تحمل الكلمات إحساس الضياع أو عدم الثقة بالنفس. قد تتداخل المشاعر فتظهر نبرة الصوت مُركّبة، لكن من المستحيل أن يكون الصوت بلا أي شعور مثلما في نبرة شادي.

كان في حالات النبرات المُركّبة يلجأ إلى قراءة ملامح الوجه، كان ذلك يساعده بشكل حاسم في تحديد الإحساس الصحيح. لهذا شعر بالارتباك عندما حاول أن يقرأ ملامح وجه شادي، لم يجد فيها أي آثار للذهول الذي يصيب الأطفال الذين يتعرضون لصدمات نفسية. بحث بتمرّس عن فزع أو توجّس أو ارتياب أو استسلام؛ عن نظرة في عينيه تصرخ للمساعدة، لكن بدا له أنه يعاين وجه تمثال حجري. ولولا أنه تكلّم لظنّ أنه شخص ميّت.

ملأه شعور بالرهبة، ولم يستطع أن ينكر أنه تمنّى أن يبكي الطفل، أن ينهار، أن يصرخ ويضرب رأسه أرضًا ويطلب المساعدة، أو أن يسبّه؛ أن يتحدّاه؛ أن يحاول الاعتداء عليه، أن يطرده من الغرفة رافضًا مُقابلته. أن يفعل أي شيء بدلًا من أن يظل هكذا بلا أي معنى قابل للتفسير.

شعر بسخف تفكيره، وسخط لاضطرابه الذي تسبب فيه إرهاقه الشديد. فمن أمامه كان مجرد طفل، وهو بالتأكيد يحتاج إلى مساعدة. حتى إن بدا الأمر غريبًا على الجميع، يجب عليه كطبيب مختص أن يكون هو الشخص الوحيد القادر على ذلك.

زفر اضطرابه في محاولة للتركيز، وأقنع نفسه بأنه لم ينتبه إلى الهسيس المُصاحب لنبرة صوت شادي، وحتى بافتراض أن الأخير قد استطاع أن يخفي شعوره في جملته الوحيدة، فهو بلا شك لن يستطيع الاستمرار في ذلك... لا أحد يستطيع. كل ما عليه الآن استدراجه للتحدث بشكل أطول من أجل عملية صيد متقنة.

عندما شرع في الرد على شادي، انتبه إلى غرابة السؤال فسأله في توجّس:

- بالتأكيد يا شادي أريد أن أعرف... فهلا أخبرتني؟

لم تتغيّر نبرة الطفل أو تبتعد نظراته عن الطبيب وهو يجيب بجمود:

- اسألني؟

بدأ فضوله في التزايد. عقد ساعديه أمام صدره وهو يسأل شادي مُراقبًا انفعالاته:

- هل كان لديكم أي زائر ليلة أمس؟
- لا.
- هل زاركم أي شخص في المنزل خلال يوم أمس؟
- لا.
- هل سمعت أي شجار بين أبيك وأمك في المساء؟
- لا.
- هل سمعت صوت أبيك يصرخ في الهاتف مؤخرًا؟
- لا.

حاول أن يكون ودودًا:

- شادي... هل كنت في غرفتك في منتصف الليل؟
- نعم.
- هل تعلم أين كان والديك؟
- نعم كانا في الصالة بالأسفل.
- كيف عرفت؟
- كنت أتأهّب لمُلاقتهما.
- في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟
- نعم... طلبا مني الحضور.
- ألم يبدو ذلك غريبًا لك؟
- لقد اعتادا ذلك منذ مدة.
- وهل ذهبت إليهما؟
- نعم.
- ماذا كان يفعل أبيك؟
- كان يقرأ من كتاب قديم بصوتٍ عالٍ.
- وماذا عن أمك؟
- كانت تلعب على لوحة ما.
- هل ظللت معهما طويلًا.
- لا... فقط بضع دقائق.
- هل رأيت الحادث؟
- .....

- هل كنت خائفًا؟
- لا.

سرت في داخلة قشعريرة خفيفة، صمت لبعض الوقت كي لا يظهر صوته متوترًا. لم يكن الأمر مُريحًا؛ ملامح الطفل الجامدة، صوته البارد الخالي من الانفعالات، نبرته الخالية من أي إحساس، لكن أكثر ما أثار ذعره كانت الإجابات، كان يشعر بأن الطفل يلقيها كأنه آلة تسجيل. يعرف أن هناك حالات يفقد فيها الانسان السيطرة على عقلة وكأنه مُغيّبًا ذهنيًا كحالة انعزال طارئة يفرضها العقل لحمايته من مضاعفات الصدمة. لكن أغلبها لا يصاحبها تفاعل ووعي وإدراك بأسئلة والرد عليها بلا أي تردد كما الحال هُنا.

توقّع أن يتأثّر الطفل عندما يأتي ذِكر والديه، أن تتحرر نظراته من جمودها، أن تختلج أطرافه، أن تظهر عليه لمحة من الحزن أو الخوف، لكنه كان جامدًا كلوح ثلج غير قابل للذوبان!

لم يفهم كيف يُمكن لطفل في عمره أ ن يكون بمثل هذه القساوة! كان طفلًا وحيدًا لأبوين ثريين، ولم يكن من أطفال الشوارع أو من نزلاء دار أيتام أو إصلاحية؛ ممن تحوّلهم ظروفهم إلى كائنات مفترسة صغيرة تنتظر الوقت المناسب لافتراس من يُخطئ في حقها.

لم يخبره عن نتيجة التحقيقات والتي لم تكن نهائية بطبيعة الحال انتظارًا لتقرير الطبيب الشرعي بعد تشريح الجثتين، لكن من الواضح أن سبب وفاة الوالدين هو إطلاق النار على الرأس. لا وجود لأي محاولات اقتحام عنيف من الخارج؛ الأبواب غير مكسورة وموصده من الداخل، جميع النوافذ سليمة. لم تكن هناك أي آثار واضحة للشجار سواء على جسديهما أو في المكان الذي وُجدت جثتيهما فيه.. كلا الجثتين أُطلق عليها النار من نفس المسدس -مسدس الأب- والعجيب أن بصمات كلاً منهما وُجدت عليه! خمن -كما خمن رجال المباحث الجنائية- أن يكون الحادث مجرد حادث انتحار مشترك، بأن يكون كل منهما قد تناوب في أن يُطلق النار على نفسه! وجد ملاحظة في دفتره تشير إلى أن ملامح الهلع ملأت وجهي جثتي الأب والأم، لكنه كان يؤمن بسخافة مثل هذا الوصف؛ فمن الذي لن تزوره ملامح الرعب عندما يقابل ملك الموت!

قرر أن يستغّل برود شادي الغريب، فسأله بهدوء:

- لماذا طلبك والديك؟
- أخبراني بأنهما يُحباني كثيرًا.
- فقط؟
- نعم.
- هل عدت إلى غرفتكِ بعدها؟
- لم يسمحا لي.
- لماذا؟
- أخبراني أنهما مُشتاقان لي.
- هل أسعدك ذلك؟
- لا... طلبت منهما أن يكفا عن إزعاجي.

عقد حاجبيه بعد أن أدهشته الإجابة، فكرّر في تساؤل:

- يكفا عن إزعاجك!
- نعم... يزعجاني كثيرًا في الفترة الأخيرة.

لمعت في رأسه فكرة مُخيفة، سأله في تخوّف:

- هل آذيتهما يا شادي؟
- لا.
- إذن هل توقفوا عن إزعاجك؟
- نعم.
- كيف؟
- اقنعتهما أن يكونا معي.

ارتجف الطبيب وهو يسأله مُتلعثمًا:

- معك؟ معك أين؟
- هُنا.
- هُنا أين؟
- هُنا... في هذه الغرفة.

تلفّت لا إراديًا وكأنه يبحث عنهما، انتبه إلى لوحة زيتية مُعلّقة على الحائط الأيمن. كانت الصورة تضم شادي واقفًا بكنزة كحلية وبنطال أسود، يقف خلفه الأب والأم. ميّز الشريطة السوداء على الطرف العلوي للوحة. أمعن النظر فرأى عبارة مكتوبة بخط أنيق:

"لن ننساك يا شادي."

اتسعت عيناه في رعب، التفت بحدة أمامه، لم يجد الطفل أمامه. بحث بعينه في هلع في أرجاء الغرفة لكنه لم يجد له أي أثر. حاول أن يصرخ إلا أن الكلمات اختنقت في حلقه، أراد أن يقف كي يخرج من الغرفة لكن ساقيه خانتاه، ظل راسخًا في كرسيه كجذع شجرة زُرعت من آلاف السنين. نظر إلى اللوحة فرأى صورة شادي ترتسم على وجهه ابتسامة بدت له مُفزعة.

فوجئ بيده اليمنى تمسك ذقنه مُرغمة، بينما تقبض يده اليُسرى على رأسه من الخلف. انسابت من عينيه دمعة عجز ساخنة، وقبل أن يكسر عنقه كآخر فعل له في الحياة.

هُيئ له أنه سمع شادي يقول:

- لقد أزعجتني أيها الطبيب.

تـمـت

أحمد فؤاد

17 شباط فبراير 2020

منصة ثقافية لإثراء المحتوى العربي
www.3alammowazy.com

في انتظار تقييمكم للقصة على موقع Goodreads على الرابط التالي

https://www.goodreads.com/book/show/51475599

للتواصل: Twitter: @ahmoda